فلسفة التكوين الناجح في العلوم الإنسانية والاجتماعية بين النظرية والتطبيق

د/ بن طرات جلول
جامعة سيدي بلعباس- الجزائر
djbentrat@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018/07/12	2018/07/13	2018/11/15

الملخص:

يشكل موضوع التكوين نهجا تربويا ومشروعا اجتماعيا يؤسس لمستقبل الكفاءات والنخب في امتلاك أدوات التنمية واكتشاف مكامن الضعف والقوة، النجاح والفشل على مستوى التخطيط والتنظيم والتنفيذ، فالنظرة البراجماتية قد تجعل من التكوين الناجح في المجال العلوم الإنسانية نموذجا يربط البحث العلمي بقيمته الإنتاجية التي تتقاطع مع المقاربة المستقبلية للتعليم المدرسي والجامعي والتكوين المهني، ولهذا الغرض وجب على العلوم الإنسانية والاجتماعية أن تنطلق من رؤية استشرافية توازن بين الطموح والواقع وتزاوج بين التخطيط والانجاز مرتكزة في بلوغ ذلك على الاجتهاد والتقويم والفعل، والاستثمار في مسالك التكوين والبحث قصد تحديد مستقبل مجتمع المعرفة، ففلسفة التكوين الناجح على المستوى النظري والعملي تبدأ بالنهوض العقلي والارتقاء الاجتماعي لأدوات البحث والإنتاج العلمي وتنتهي بتحديد الهياكل والمؤسسات المعرفية، ودفع الكفاءات للمساهمة في عملية البناء والتنمية، فتطوير قطاع البحث والتكوين

في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية قد يوفر الشروط والوسائل اللازمة لتوجيه الطاقة الاستيعابية للمتكون، وتفعيل أدوار الفاعلين، التربويين لإصلاح المجتمع والانفتاح على العالم من خلال ترسيخ قيم التكوين الناجح ضمن رهانات التنمية ومقومات المجتمع الحداثي.

الكلمات المفتاحية:

التكوين الناجح ؛ الكفاءة ؛ مجتمع المعرفة ؛ العلوم الإنسانية و الاجتماعية.

Abstract:

Among the paradoxes that marked the school and university year, the reform of the Algeria education system remains a topical issue training, including the resolution of structural problems,which the Algerian school inspires all the social and human transformations and educational.

Knowing, on the other hand, that Algeria can no longer afford to dedicate education and training because investment is the driving force of a real improvement in the quality of education, because in terms of sectoral reform a comprehensive strategy of upgrading the school and the Algerian university presupposes the introduction within the program schooling, universally established knowledge, the renovation of methods and the adaptation of the aims of the school to social practices.

In this respect, educational philosophies make it possible to face the challenges of formation of minds to renew the modern revolution to transmit thecivic and ethical values that cultivate the ideal of citizenship, and grow the school and the Algerian university proceeded to a radical criticism of the speeches and steps to bring about major socio-economic transformation and cultural heritage, thus the development of methods of knowledge and the training that even to build the knowledge economy because training without quality represented rather handicap in front of the integration of the young people in the plan economic and social, because the academic and educational conditions

The advantage to knowledge and knowledge in the educational framework and in our schools and universities.

Finally, the formation had reached the consensus and focused the hope of the evolution Creates to train the spirits, and cultivate knowledge to the order of intellectual inquiry that focuses on fundamental knowledge, and the thought of light so the imaginary wealth of our skill.

Keywords:
Successful Training - Competence - Knowledge Society – Science human and social

مقدمة:

يشكل مفهوم التكوين حجر الأساس لعملية النهوض بمجتمع المعرفة الذي ينصرف إلى تعزيز قيم التنمية واستشراف مقومات الاستثمار في عالم الأفكار والأشياء، ومن ثم الانفتاح على كل التجارب الحضارية التي أسست لولادة العلم كثورة معرفية حاول من خلالها الفكر البشري أن يمتلك آليات الحوار مع الطبيعة قصد الإجابة على أسئلتها، لذلك جاءت تلك الاختراعات والاكتشافات العلمية لترسم معالم هذا المجتمع الذي انفرد بخصوصيات التكوين على مستوى النظرية والتطبيق لاسيما في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، هذه الحقيقة تعكس كل نسق اجتماعي استوعب نموذج التنمية في إطار التاريخ والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع ضمن هذه التطورات التي صاحبت الحقل المعرفي لهذه العلوم التي حملت تجليات شروط صناعة النهضة وكل ما تنتهي إليه حدود المعرفة البشرية في ترسيخ قيم هذه العلوم في تشييد نظام معرفي يختزل كل مراحل التكوين الناجح باعتباره حلقة من حلقات التطور الذي استوعبه المجتمع الحداثي، ومن هذا المنظور فإن كل المؤسسات المسؤولة عن صناعة الوعي على مستوى المنظومة التربوية جاءت لتحديد طبيعة فلسفة التكوين كأداة من أدوات النهوض ببرامج ومناهج التنمية الحقيقية في الإنسان خاصة دلالات هذه الفلسفة التي تتواصل مع قيم مؤسسات التنشئة الاجتماعية على مستوى علم الاجتماع أو تعزيز لغة علم

النفس بجميع فروعه، أو تلك المجالات المعرفية التي تحدد كيفية تطبيق قيم هذا التكوين لاسيما على مستوى علوم الاتصال، وإعادة بناء هذه الأنساق في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومن ثم فكل ما ينطوي تحت هذا الفهم لطبيعة هذا التكوين بين النظرية والتطبيق لا يخرج عن نطاق مفهوم وموضوع وأهداف العلوم الإنسانية والاجتماعية التي اعتبرت الإنسان حقلا لكل تجربة عرفانية توجه أفكاره ومعارفه وسلوكاته انطلاقا من تلك المبادئ والقواعد الأساسية التي أرسى دعائمها التكوين الناجح الذي يحمل أسس تلك العلوم التي ترمي إلى تجاوز كل العوائق والأزمات التي تحول دون تعزيز قيم الفكر الأنواري الذي أسست له الفلسفة في الخطاب الهيجلي والديكارتي والكانطي، أو ما حاول من خلاله فرويد في تعزيز مبادئ مدرسة التحليل النفسي، أو ثورة ابن خلدون وأوجست كونت ودوركايم في مجال علم الاجتماع والتاريخ، هذه القيم تمثل وجها من وجوه التكوين الناجح في فهم ودراسة الإنسان، ومن هذا المنظور فإن ما حملته ثورة العولمة وخصوصيات العقلانية قد يوضح لغة التكوين التي تتحدث بها العلوم الإنسانية والاجتماعية في صناعة النخب وإنتاج الكفاءات القادرة على صياغة منظومة القيم التي تسمح بالانخراط في القضايا التي تهم المجتمع والإنسان، وتعزيز المناهج المعرفية ومقوماتها قصد إشراك تلك الكفاءات والنخب في عملية إعداد وبناء الفاعلين في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية وتهيئتهم للخلق والإبداع والتجديد. «... ومن ثم وجب إرساء تقاليد البحث العلمي والتكوين المستمر الذي ينبغي أن لا يبقى مجرد شعار للاستهلاك، بل يصبح تقليدا تفرضه طبيعة العلاقة التفاعلية الدائمة بين الذوات سواء كانوا معلمين أو متعلمين، ومن ثم النظر إليه باعتباره استجابة لحاجيات ورغبات الفاعلين في مجال كل العلوم مع تشكيل خلايا حقيقية للبحث والتتبع تكون مهمتها

الأساسية الإنصات الدائم للواقع المعرفي المتغير...»[1]، هذه الرؤية البراجماتية لطبيعة التكوين قد يجعل من بنية ونسقية المرجع المعرفي والثقافي محددة لتلك الكفاءات والاستجابات التعلمية التي تقتضي المساهمة في تكوين وطبع نموذج الإنسان الذي تطمح فلسفة المجتمع إلى إعداده مستقبلا، ومن ثم فإن التكوين الناجح يعد تفكيرا في المنهجية حول طبيعة المتعلم والمكوّن والمادة التعليمية التي تمنح له، فأساليب التكوين تنطلق من إنتاج خطاب تعليمي ينفتح على تلك الأفكار والمعارف التي تتلاءم مع فلسفة مجتمع المعرفة الذي يعتبر الكفاءة الرحم التي تتخلق فيها سيرورة هذا المجتمع وحركيته الإبداعية بخلاف الرداءة التي تمثل إفلاسا لكل مشروع معرفي من شأنه أن يعزز قيم التنمية ويدفع إلى التأثير الفعلي في بناء المجتمع الذي ينفرد بخصوصيات التنوع والتباين الثقافي، ولذلك فقد يتقاطع هذا الطرح مع كل نمط تكويني تتميز به العلوم الإنسانية والاجتماعية لاسيما في مجال التربية والتعليم الذي يجعل من الطريقة والمنهجية في التكوين محركا أساسيا لنجاحه ونجاعته وفقا للمبادئ الحديثة التي تجاوزت كل الأساليب التقليدية في التكوين أين ركزت إسهامات "دولاند شهير Deland Sheere" و"تايلور Taylor" و"بلوم Bloom" على تعزيز لغة التكوين الناجح من خلال الربط بين الوسائل والأهداف، وهو ما انصرف إليه بلوم ومساعديه «... هو البحث عن حلول للصعوبات التي تعترض المدرسين أثناء القيام بعملية تقييم نتائج أعمال طلبتهم، وترتب عن ذلك البحث في وضع طريقة ملائمة تسمح بالقياس الكمي للأنشطة التربوية والتعليمية، وحتى يكون ذلك ممكنا يصبح من الضروري وفي المقام الأول تحديد ما يراد قياسه وتقييمه تحديدا دقيقا وبطريقة تقبل الملاحظة، أي مجموع الأهداف التي يسعى التعليم إلى تثبيتها لدى المتعلمين، وذلك باعتبار عملية القياس والتقييم لا بد أن تكون مسبوقة بتحديد السلوكات والإنجازات المراد

قياسها...»[2]، وضمن هذه الرؤية فإن الاتفاق حول غايات وأهداف التكوين الناجح قد تهيئ المكون لإعادة النظر في نظام التكوين على مستوى محتوياته، طرقه وآليات تقويمه حتى يصبح أكثر إنتاجية، فعالية ومردودية وهي الشروط والسمات التي تجعل من التكوين الناجح في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بين النظرية والتطبيق على كل المستويات: عمليا لتطوير الاقتصاد، وفلسفيا لحفظ النظام ومكتسباته.

العرض:

إن المتأمل لواقع التكوين في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية يجزم بحقيقة مفادها أن تغييب مبادئ الفعالية خاصة المهارة والإنتاجية قد يؤثر سلبا على عملية إنتاج الكفاءات والتأسيس لفلسفة الخلق والتجديد لمنحنيات التفكير الإبداعي لاسيما تطوير وترقية فكر المتكون الذي يطابق بين ما اكتسبه وتعلمه، وبالتالي فتحقيق الأهداف الحقيقية للتكوين الناجح هو ما ذهب إليه دانييل هاملين D. Hameline: «... إن التعبير الأقل والأكثر صراحة عن الآثار المرتقبة في مدة قصيرة أو طويلة، وبقليل أو كثير من التأكيد والاهتمام من طرف المكونين أو الأشخاص موضوع التكوين والمقررين له بما في ذلك المجتمع...»، ومن هذا المنظور فإن عملية التكوين يمثل مشروعا للأهداف التربوية والتعليمية ومستوياتها التي تتحرك في حدود التخطيط السليم لنجاح هذا المشروع على مستوى العلوم الإنسانية والاجتماعية وهدا ما نستشفه من نظرة "دولاند شهير" الصريحة: «... أن تربي يعني أن تقود، وأن تكوّن هو أن توجه نحو مرمى معين، لكن أن تقود وأن تكون بدون اتجاه أو هدف شيئان لا يمكن أن يلتقيا، وأن تقود إلى اتجاه ما غير كاف وحده لأن مصير التربية والتعليم والتكوين في جوهره إيجابي، فنحن نربي نحو الحق والخير والجمال، وليس نحو الخطأ والشر والقبح...»[3]، فطبيعة هذه الأهداف والقيم التي

يحملها مفهوم التكوين في صورته التربوية والتعليمية لا تخرج عن نطاق فلسفة المجتمع ورهاناته التي تعتبر كل إنجاز هو بمثابة إنتاج للإنسان المثال الذي لا يتحقق إلا ضمن ما هو مخطط له على المستوى القصير والمتوسط والبعيد، فالتخطيط في مجال التكوين قد يسمح بتنمية المهارات والقدرات بشكل متدرج ومتكامل لينتهي عند خصوصيات مجتمع المعرفة الذي يعزز الحوار بين الفكر العقلاني بمنهجه العلمي وهدفه المجتمعي كأداة لترسيخ كل الرؤى والآفاق التربوية التي تصاحب عملية التكوين، «... فمما لا شك فيه أن علماء التربية والعلوم الاجتماعية تنصرف إلى إعداد وتكوين المواطن العربي بالمعرفة والفكر والخلق، ومن ثم يغدو قادرا على الإنتاج المبدع والمتميز الذي يثري حضارته والحضارات الإنسانية في مسيرة القرن الحادي والعشرين...»(4)، ولذلك ففلسفة التكوين الناجح تكون أكثر إشراقا، وأغزر إنتاجا وأفعل إنجازا إذا عززت الأساليب العقلانية في بناء المنظومة القيمية للمجتمع واستشراف أهدافه كقاعدة مؤسسة للعلم والمنهج الذي ينفتح على كل التغيرات والتحولات التي جعلت من عقلانية التكوين كمضمون مجتمعي وليس فردي، هذه العقلانية قد تحدد مصادر العقل المبدع والمجدد لدى المتكون ولدى المجتمع بصورة عامة، فالعلاقة الجدلية بين التكوين على المستوى النظري والتطبيقي تتمظهر من خلال التمييز بين الأفكار والمفاهيم والتصورات التي يحملها المكون كبرنامج نظري، وأرضية لممارسة هذه الأفكار ضمن فضاء معرفي ملائم يتحرك في حدود التخطيط للنجاح في بلورة هذه الثقافة التخطيطية التي تنفرد بها العلوم الإنسانية والاجتماعية على المستوى التربوي والتعليمي، ولعلّ من بين أهم التحديات التي واجهت عملية التكوين في مجال هذه العلوم هو غياب ثقافة التخطيط العقلاني التي من شأنها أن تعزز الدور الاجتماعي لمؤسسات الوعي التي تعمل على توظيف العقلانية وأدواتها العلمية في ترقية

دافعية الطموح والإنجاز عند المتكونين لا سيما توجيه تلك القدرات والملكات والمهارات وفق برامج ومناهج أكثر ملاءمة مع قضايا المجتمع وفلسفته، خاصة سياسة التكوين التي تنتهجها المجتمعات العربية بخلاف الغربية، وضمن هذا الاختلاف في تطبيق هذه السياسة تنفرد مهمة بناء الأنساق الاجتماعية الكبرى بتكييف فلسفة التكوين الناجح مع التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية قصد عقلنة ونمذجة آليات وأهداف التكوين الذي ينطبع عليها الوعي الجمعي الذي يعمل على توليد كل القيم والأفكار التي يجب أن يتمتع بها المكوِّن والمتكون في مجال تلك الدراسات العلمية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، فرهانات مجتمع المعرفة تتحرك في حدود عملية الإنتاج والبناء النسقي للوعي الاجتماعي، الذي يختزل مستويات ومراحل التكوين الناجح الذي «... يتأثر بالمنتج العلمي خاصة مساهمة العلم في بلورة وعي مستقبلي يتجاوز الوعي القائم إلى وعي ممكن توجهه ثقافة التطوير والإصلاح والتجديد والتنوير لتستوعب لغة التكوين خصوصيات هذه الثقافة في صناعة قيادة نخبوية تقود هذه الخطط والإستراتيجيات والتجارب في مجال التعليم والتعلم وكل المؤسسات التي تعزز العلاقة بين التكوين والتنمية كنظرية وممارسة...»(5)، وقد انصرفت الدراسات الاجتماعية المعاصرة إلى اعتبار التخطيط حجر الأساس للحوار الاجتماعي بين البنية الفوقية والتحتية للمجتمع الذي يتأثر بالتغيرات الاجتماعية والتربوية التي تتحرك في سياق الطابع العلمي والعقلاني للتكوين وتوزيع المعارف على أفراد المجتمع، وتطوير نظم التعلم، ولذلك فوظيفة التكوين نظريا لا تنحصر في تزويد المكوَّن بالأفكار والتصورات وإنما في بناء الوعي التربوي والاجتماعي لديه، والاستثمار في البنى الاجتماعية التي تنتهي عندها عملية التفاعل والتوازن الاجتماعي لحركية التخطيط وسيرورته.

تمثل تلك المبادئ والأفكار التي ميزت التفكير الإنساني المعاصر أساس تطور العلوم الإنسانية والاجتماعية وانفتاحها على قيم مجتمع الحداثة التي تختزل الجوانب الثقافية للتنمية في تطبيق أساليب التكوين كمشروع معرفي يؤسس لخطاب يجدد من علاقة الحداثة بالتنمية ووضعية التفكير العلمي الذي يشكل جوهر العلوم الاجتماعية التي «... ينبغي عليها المشاركة في مسار الهيكلة التي يتطلبها هذا المجال على مستوى الهياكل والهيئات والتنظيم وكل الأنشطة الفكرية والأنماط والأنساق والبنى الاجتماعية التي تعزز حضور فعالية التكوين نظرية وتطبيقا في ربط مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالدور الإستراتيجي للنخب والكفاءات في صياغة عناصر قطاع البحث والإنتاج المعرفي التي تربط العلوم الإنسانية والاجتماعية بالمجتمع...»(6)، هذه العلاقة الجدلية هي جزء لا يتجزأ من خصوصيات التكوين والتوجيه على مستوى المنظومة التربوية والجامعية التي تتناول مظاهر النجاح والفشل في مجال عملية إنتاج الأفكار والاستثمار في تجربة الآخر لاسيما أن فلسفة البحث العلمي وتكوين الأدمغة، « ومن ثم فإن تعليم وحدة تقنيات البحث في الميدان تتميز بمحتوى غامض يتأثر إلى حد كبير بانعدام الوسائل المادية الذي يجعل جانبها المتمثل في فترة التكوين بمكان العمل في غاية الغموض، فالنقائص كثيرة إلى درجة أن الوحدة غالبا ما تكون مفرغة من مضمونها، خصوصا أن غياب المؤهلات وعدم تلقي أي تكوين عقلاني قد انعكس سلبا على المعلمين والطلبة في الجامعة...»(7)، هذا الطرح قد جعل من تطبيق الأساليب الحديثة للتكوين ضرورة حتمية في مجال العلوم الاجتماعية قصد بناء قيم السلوك والمعرفة، هذه القيم تمتد إلى خصوصيات المجتمع التي تنتهي عند حدود منظومة المعارف التي يكتسبها المتكون أثناء مراحل نموه وتعلمه، «... فالتكوين الناجح من الناحية النظرية يفهم على

أساسه تكوين البناء النفسي للإنسان، أما من الناحية التطبيقية فيقوم على ضبط السلوك وتوجيهه وتعديله سواء في مجال التربية، أو التدريب المهني والصناعي...»[8]، فكل ما ينطوي تحت مفهوم التكوين هو ما عزز تطور النظريات والأفكار التربوية المعاصرة التي تلتقي مع خطاب جون لوك الذي يعتقد «...أنه من الواجب اكتساب العلم والمعرفة، ولكنه يجب أن يكون اكتسابها في المرتبة الثانية، وعلى سبيل التبعية لتكوين الصفات العظمى، أبحث عن شخص من الأشخاص يمكن أن يعرف كيف يبني أخلاقه بطريق مباشر، صنع هذا الشخص بين يديك بحيث تحتفظ بصفاء نفسه بقدر ما يستطيع، ثم ارع طيب أخلاقه وتعهدها واستأصل الميول الضارة واغرس في نفسه العادات الطيّبة، هذا هو الأمر الرئيسي ومتى تم الوصول إلى ذلك كان من الممكن الوصول إلى العلم والمعرفة تبعا له، وفي رأيي إن هذا التعلم والتكوين ينبغي أن يكون بأسلوب سهل وبطرائق ينبغي التفكير فيها...»[9]، ومن هذا المنظور فالتكوين القاعدي للذات على نحو أخلاقي لا يخرج عن طريق التكوين العقلي والمعرفي، ولهذا فطبيعة هذه الدلالات التي حملها تصور "جون لوك" قد عززت نظرته في موضع آخر يحدد تجليات الإعداد التربوي والاجتماعي السليم للطفل من خلال نجاعة التكوين لاسيما من خلال إرسائه لقيم النزعة التهذيبية التي دعا إليها، «... فالقوى العقلية إنما تصلح وتنمى وتجعل نافعة لنا بالطرق التي ينمو بها الجسم فإذا أردت من طفلك أن يجيد الخط أو التصوير أو الرقص أو اللعب بالسيف فحاول أن يكون ممتلئا أولا وقبل كل شيء بالنشاط، وأن يكون سهل الانعطاف، خفيف الحركة، حاذقا ماهرا، ولكن الطفل لا يصل إلى ذلك إلا بالتعويد وإنفاق الوقت الطويل والجهد العظيم في تمرين يده وباقي أطرافه على هذه الحركات، كذلك الحال في العقل فإذا أردت من الإنسان أن يجيد التفكير ويحسن الاستدلال، فعليك أن تأخذه بذلك في

الأوقات الملائمة، فعوده من الصفر كيف يربط الأفكار بعضها ببعض، وكيف يتبع المعاني على حسب ترتيبها في الوجود...»[10]. وطبقا لهذه النظرية التربوية الحديثة يظهر تأثير عملية التكوين في تعزيز درجات الوعي الاجتماعي وكل الأشكال والمستويات لمختلفة التي تربط المعلم بالمتعلم لاسيما تلك التمثلات والتجليات التي تصاحب مظاهر التفوق والطموح خاصة التحصيل العلمي والتكوين التربوي الجيد، الذي تتضمنه البرامج التعليمية ومناهج التكوين النظري والتطبيقي، «... ففكرة السلم التعليمي وما تدعمه من تراتب معرفي واجتماعي هرمي لوثيقة الصلة والتفاعل مع ما طرحناه سلفا بشأن "نسق الحوافز المجتمعي"، بحيث يأتي التدرج في الشهادات والمؤهلات الدراسية انعكاسا لما يموج به الواقع الاجتماعي من قيم ومعايير، وما يشتمل بين عناصره وقواه من علاقات وتفاعلات، وبحيث يؤدي الأمر في النهاية إلى تثبيت ذلك الواقع المتفاوت، ولكن في إطار عقلاني من المفهومات العلمية الحاكمة والنظم والأنساق التعليمية المحايدة...»[11]، فطبيعة التكوين في مجال التربية والتعليم قد راعت كل عناصر العملية التربوية من خلال التدريس بمنهج المقاربة بالكفاءات لاسيما بنية النظام التربوي في الجزائر الذي يعتبر التكوين الجيّد في جميع مراحل الأطوار التعليمية حلقة من حلقات تاريخ العلوم الإنسانية والاجتماعية الذي أسس لمناخ المعرفة وحركة التنوير والتجديد التي صاحبت الحقول المعرفية لهذه العلوم في اكتساب المعارف وتوزيع الأدوار التربوية على المكونين في إنتاج هذه النخب وصناعة سياسة التكوين تتحرك في حدود تجاوز مرحلة الاستهلاك إلى التجديد والإبداع في عالم الأفكار والأشياء قصد توجيه كل المشاريع التنموية التي تهتم بالاستثمار العقلاني في الإنسان، فالمفهوم المعاصر للتنمية قد جسده مجتمع الحداثة وأرست قواعده الثورة الرقمية التي دعت إلى حضور الخبرات والكفاءات في

مجال الجامعة وكل المؤسسات التي تلتزم بالتكوين نظرية وتطبيقا خاصة على مستوى التخطيط العلمي والعقلاني الذي يسمح بالتوجيه السليم للمهارات والملكات، ومن ثم فإن العلاقة بين النظرية والتطبيق هو مواجهة التكوين الناجح لتلك التحديات والرهانات المعاصرة، « ولذلك فالمتعلمون يكونون أكثر معرفة ودراية عند الخروج من المدرسة والجامعة، وكثيرون منهم ليسوا قادرين على تعبئة معارفهم خارج وضعية الامتحان فكل ما عرفوه وتلقوه يكون غير مفيد خارجها إلا إذا ما استطاعوا تمييز وتفعيل أو تحديد معارفهم أو التفكير حتى في الابتعاد عنها لابتكار حلول جذرية عندما تستوجب الوضعية الذهاب أبعد من المعارف المكتسبة، لقد تم التوصل اليوم إلى أن هذه التعبئة لا تتم تلقائيا بل عن طريق التجريب والتدريب عليها وكذلك الرهان الكبير القائم على التكوين خلال التكوين العملي، الجديد في الأمر هو أننا ينبغي أن نهتم بهذه العملية من مرحلة التمدرس الأساسي...»(12)، فالامتلاك الدائم للمهارات والمعارف قد يهيئ المتعلم للتفاعل مع طبيعة التكوين الناجح فيصبح منتجا فاعلا ومن ثم تظهر تمثلات النمو المعرفي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية وهو ما يولد حركية تلك الأنشطة التي استوعبها مجتمع المعرفة الذي ينصرف إلى تقويض التخلف والجمود والانغلاق على الذات ويعزز دور الكفاءات في صياغة عناصر التنمية المعرفية التي تساهم في عملية الإبداع على مستوى الفعل والفكر وهذا ما نلمسه على مستوى العلاقة الجدلية بين التكوين الناجح وتعلم الاستقلال الذاتي داخل الوسط التربوي وهذا ما أشار إليه الكثير من علماء النفس لا سيما كارل روجرز K. Rogers: «... أنه كلما أتيحت الفرصة للمتعلم لتنمية خياله والجانب الإبداعي فيه كلما سهلت عملية الفهم لديه، لذلك فالتلاميذ في حاجة إلى إطار آمن ومجالات من الحرية يسمح لهم فيها بالاختيار وأخذ المبادرة،

الإبداع، وتحمل المسؤولية. وهذا ما تقترحه البيداغوجيا الفارقية حيث إن العمل الذاتي أو المستقل، والتقويم الذاتي والتعاقد وبيداغوجيا المشروع والعمل بالمجموعات كلها تقنيات تشجع وتنمي الجانب العقلي لدى المتعلمين وتزيد من حظوظ تفوقهم الدراسي...»[13]، ويلتقي هذا التصور مع واقع المشاكل والصعوبات التي تعترض عملية التكوين في جميع ميادين المعرفة على غرار المنظومة التربوية والتعليم العالي في الوطن العربي، فالتطور المعرفي داخل وضعيات التفاعل الاجتماعي قد يجدد بنية التكوين المحكوم بأدوات التخطيط العقلاني وإستراتيجية النجاح التي تعزز عملية البناء للثروة المعرفية والمفاهيم، وبذلك فإن كل نسق أو نموذج يصاحب التكوين الناجح لا ينفصل عن ما ذهبت إليه الدراسات السوسيولوجية والنفسية الحديثة على ضرورة مراعاة كل الفوارق الذهنية والاجتماعية والنفسية والبيولوجية عند ممارسة عملية التكوين في مجال التعلم... وهذا ما يساعد المكون على « تهيئة المتعلم على اكتساب الخبرات والمعارف وانفتاحه على تصورات وآراء الآخرين وتجاوزه لتمركزه على ذاته، وكذا إدراك أهمية العمل الجماعي والتعاون، ومن ثم الأهمية التربوية لهذه المقاربة البيداغوجية وإمكانية اعتمادها لبناء كفايات تربوية يستفيد منها المتعلم...»[14].

يشكل موضوع التكوين نهجا تربويا ومشروعا اجتماعيا يؤسس لمستقبل الكفاءات والنخب في امتلاك أدوات التنمية واكتشاف مكامن الضعف والقوة، النجاح والفشل على مستوى التخطيط والتنظيم والتنفيذ وهذا ما يحمله التكوين البراجماتي على المستوى التربوي، «... أين ينطلق من حرية الطفل وفسح المجال أمامه لكي يجرب ما شاء ويتصل بالمجتمع بدون قيود، لأنه في هذا الاتصال وعبر هذا التفاعل يتعلم الطفل وينجح في التكيف مع محيطه، فالتكوين في بعده التربوي والتعليمي يعد توجيها للدوافع

والقدرات الطبيعية نحو تحقيق الحاجات، وإنتاج عقل نشيط ومنتج في جميع الأحوال والمواقف، عقل قادر على الاكتشاف والإبداع...»[(15)]، هذه النظرة البراجماتية قد تجعل من التكوين الناجح في مجال العلوم الإنسانية نموذجا يربط البحث العلمي بقيمته الإنتاجية التي تتقاطع مع المقاربة المستقبلية للتعليم المدرسي والجامعي والتكوين المهني، ولهذا الغرض وجب على العلوم الإنسانية والاجتماعية « أن تنطلق من رؤية استشرافية توازن بين الطموح والواقع وتزاوج بين التخطيط والإنجاز مرتكزة في بلوغ ذلك على ثلاثة مستلزمات: الاجتهاد، التقويم والفعل. والاستثمار في مسالك التكوين والبحث قصد تحديد ملامح مستقبل مجتمع الكفاءات استجابة لمتطلبات النسيج الاقتصادي والاجتماعي...»[(16)]، ففلسفة التكوين تبدأ بالنهوض الفعلي والارتقاء الاجتماعي لأدوات البحث والإنتاج العلمي وتنتهي بتجديد الهياكل والمؤسسات المعرفية ودفع الكفاءات للمساهمة في عملية البناء والتنمية، فتطوير قطاعات البحث والتكوين في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية قد يوفر الشروط والوسائل اللازمة لتوجيه الطاقة الاستيعابية للمتكون وتفعيل أدوار الفاعلين التربويين في إصلاح المجتمع ضمن الاهتمام بسبع مكونات أساسية: التعلم، الفاعل التربوي، النموذج البيداغوجي، المؤسسة، الشركاء، المجتمع، ثم الانفتاح على العالم، «... هذه المكونات تحتفظ بفاعليتها في التكوين الناجح الذي ينصرف إلى ترسيخ وتعزيز التكوين الملائم مع رهانات التنمية لاسيما التنمية الفعلية التي تضمن الارتقاء الاجتماعي المؤهل للنخب والأطر الفاعلة في مجتمع المعرفة، وتمكن المجتمع من الانفتاح الإيجابي على العالم عن طريق الانخراط في حركية البحث العلمي والابتكار، وتدعيم المجتمع لامتلاكه التكنولوجيا والتحكم فيها لنقل وإنتاج المعرفة...»[(17)]، هذه المؤشرات التنموية هي بمثابة حجر الأساس لممارسة

عملية التكوين وفق المبادئ والقيم التي تتفاعل مع الأدوار الاجتماعية للمكونين في إنتاج المعرفة وتعليم الأفراد وتزويدهم بالأفكار، ومن ثم فإن الخطاب السوسيولوجي المعاصر يحمل في طبيعته الاستشرافية أثر التكوين الناجح في ربط المعرفة والبحث بتحولات المجتمع وتطوراته لاسيما العلاقة بين التنمية المعرفية والتنمية الاقتصادية. «... فالتعليم هو الأهم في تكوين المعرفة وتطورها لزمن طويل، وهذا ما يتضح من خلال تطور البنيويات والهياكل المعرفية والإبداعات الإنسانية المدهشة التي لا يمكن لأي وسيلة أخرى أو مضمار آخر توليدها بمثل هذا المستوى، ومضمار التعليم هو أساس الحياة المعاصرة المستقبلية في تطوير الإنسان على الأرض وما سيطور من علاقات في خارجها، ولم يكن لهذا المضمار أن يصل إلى أرفع مستوياته لولا القيم العلمية والتقاليد المنهجية وفضاءات الحرية في اكتساب المعرفة وتطور سبلها وأساليبها...»(18)، فالمجتمعات الواعية والشعوب المتمدنة تربط مستقبل وجودها بعالم الفكر والتخطيط للمستقبل لاسيما في تطبيق لغة التكوين في مجال العلوم، وهذا ما يتطابق مع قيم الحداثة وتحولات العولمة التي تعتبر التكوين الناجح فضاءًا لحركة التنوير الثقافي الذي يتشبع به المُكوّن باعتباره جوهر هذه العملية التي تنطوي تحت مفردات المناخ المعرفي الخصب، فكل ما يجسد مجتمع المعرفة لا يخرج عن نطاق تنوع أدوات ووسائل المعرفة والاتصال وكل ما يختزل إستراتيجية التعلم في بناء طريقة التفكير وتوجيه المهارات والملكات التي تختزل النشاط الذاتي للمتعلم، ومن هذا المنظور فإن مظاهر التبعية والتخلف الحضاري التي تعيشها المجتمعات العربية تمتد إلى غياب ثقافة التنمية والتخطيط لاستشراف المستقبل، لذلك أصبح من الضروري تطوير مجالات المعرفة في إطار التخطيط وتأمين شروط المعرفة أين تغدو كل ثورة علمية أداة لتوجيه هذه البنى الاجتماعية، وقد يكون لفشل سياسة التكوين

أثرا سلبيا على أزمة العقل العربي « الذي يعيش حالة اغتراب قائم على تقليد الغرب واقتباس كل ما يقدمه دون اختيار وتمحيص، ففي الحالة الاغترابية الأولى يغرق الإنسان في الماضي، وفي الحالة الثانية يغرق في التبعية...»[19]، ومن هذا المنظور فإن وضعية التكوين في المجال العلمي قد عرفت جملة من التحولات الثقافية والتغيرات الاقتصادية التي اصطدمت بها مستويات النشاط العلمي مما أثار سلبا على تجربة الباحثين والمتكونين على مستوى البرامج والمناهج لا سيما التكوين الجامعي، لذلك فإن الانفتاح على العالم لا يتأتى إلا من خلال ربط مجتمع المعرفة بمفهوم التنمية الذي ينطلق من تجديد عناصر السياسة التكوينية المنتهجة، والتجديد الاجتماعي الشامل لمسارات البحث طبقا لأهداف التخطيط التنموي وغاياته، وضمن هذه الفلسفة التي تحكمها العلاقة الجدلية بين الممارسة والوعي تتمظهر لغة إنتاج الأفكار والمعارف، «... فالتصور المرجح للاقتصاد في التنمية الذي ساد في الواقع رغم التكوين النظري كان أكثر توازنا، فقد جرت الأمور كما لو كان مجرد التأثير في البعد الاقتصادي للمجتمع كفيلا تلقائيا بتحريك المجتمع بأكمله في مسيرته نحو التنمية وهو ما استدعى إلى ضرورة تكوين أعداد كافية من الإطارات على كافة المستويات قصد تغطية احتياجات البلاد، كفاءات عديدة من رجال الفكر لتأدية مهام تعليمية شاقة لا تترك لهم سوى القليل من الوقت للتفكير والإنتاج الفكري الذي كان بوسعهم ضمانه...»[20]، فطابع التنمية مرتبط بمستوى التكوين الناجح الذي تتجلى فعاليته في الاهتمام بمؤسسات البحث المعرفي التي تصاحبه تلك الإبداعات الثقافية داخل مجتمع المعرفة، لاسيما أن الدور العلمي للعلوم الإنسانية والاجتماعية لا يقتصر على عملية البحث في الإنسان وإنما المساهمة في عملية التنمية وامتلاك آليات الإنتاج والتجديد للتحرر من حالة الانغلاق إلى الانفتاح على عالم الفكر والمعرفة،

فكل تجربة تنموية تنطوي على دور طاقات الإبداع التكنولوجي التي تمتد إلى فعالية التكوين الناجح وأثره المستمر في تزويد كل قطاعات البحث على غرار المدرس والجامعة وكل ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية بالأفكار والمعارف التي تؤسس لتفكير منتج يستهدف كل ما يتعلق بالتعليم والبحث في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع على أساس تكوين الكفاءات على المستوى النظري والتطبيقي، فمبادئ التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد لا تخرج عن أهداف التكوين العلمي الجيد للطالب في الجامعة، فحركة الإبداع والإنتاج التي تصاحب فلسفة التكوين قد تتعايش مع العوامل الاقتصادية وكذا الاجتماعية والسياسية والإستراتيجية والثقافية، هذا التعايش ينطلق من التفتح الكامل لقوى الإبداع والتقدم ومواجهة تحديات العولمة ونتائج الحداثة، وينبغي على المجتمع الجزائري أن يساير تلك الأفكار الإستراتيجية التي توجه سياسة التكوين ويحول كل تجاربه التنموية إلى مجال البحث والتكوين المستمر، ولذلك تعتبر هذه الأهداف بمثابة الحوار الجدلي القائم بين العلوم الإنسانية والاجتماعية وطريقة التكوين المنهجي والعقلاني للنخب والكفاءات دون تغييبهم أو إقصائهم وتهميشهم داخل المجتمع، فكل درجة من درجات الوعي والنضج الاجتماعي للفرد هي شكل من أشكال الارتقاء على مستوى قيم المعرفة وكل مؤسسات التكوين، ولذلك فقد اهتمت الدراسات العربية المعاصرة بقضايا المعرفة وتكوين العقل وإنتاج الإنسان المستقبلي الذي ارتبط وجوده بالتكوين، فكل أنظمة المعرفة والمقومات الحضارية البشرية قد جعلت من كيان المعرفة جوهر استمرارية البحث العلمي الذي يعزز الدور التكويني للعقل في بناء هذه الأفكار وتداخلها في تشكيل نسق البحث وبنيته، «... ولذلك فالتفكير بواسطة ثقافة التكوين معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي

مقدمتها الموروث الثقافي والمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، إلى الكون والإنسان، كما تحددها مكونات تلك الثقافة...»[21].

إن الطابع الإستراتيجي للتكوين يتحرك في حدود تمثلات المتعلمين وتنوع أدوات المعرفة والاتصال بالعالم والانفتاح على قيمه، ففلسفة التكوين الناجح على المستوى التربوي والتعليم « قد تجعل لمشاركة المتعلم في هذه الحالة ذات مدلول لأنه سيصبح فاعلا في العملية، إيجابيا وليس سلبيا، كما أنه على المستوى البداغوجي يتعلم كيف يصنع المعرفة، وكيف أنه بإمكانه تأثيث بيته المعرفي، وفي نفس الوقت يتمكن من مهارات عالية كالحجاج، التحليل والتركيب، ويستبطن قيما نبيلة خصوصا التعاون ومشاركة زملائه في بناء المعرفة، وهي معارف أكيد أنها ستبقى راسخة عند التلميذ لأنه شارك في صنعها ولأنها من المفترض أنها بديل واع لتمثلات تسربت إلى الذهن بطريقة أو بأخرى شأنها شأن تلك المعتقدات التي تحدث عنها ديكارت من خلال لغة الشك...»[22]، فتطور الفكر، والامتلاك للمعارف وممارسة مهارات التكوين في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية قد يهيئ الذات التي استوعبت فلسفة التكوين الناجح إلى التفاعل مع حركة الإبداع والإنتاج العلمي الذي يعزز طبيعة هذه الفلسفة وكل مستويات النسق الاجتماعي التي تتباين عندها قدرة المكون على الاهتمام بمؤهلات المتكون وكل ما ينتهي عند حدود رهانات مجتمع المعرفة، فعملية التكوين لا تقتصر على تخزين المعارف وشحن الذاكرة بالأفكار وإنما النهوض بالكفاءات التي تتواصل مع طبيعة هذا المجتمع على مستوى الخطاب الاستشرافي الذي تستخدمه المجتمعات المتحضرة قصد البناء العقلاني للوعي وممارسته في إرساء مبادئ العقلانية التكوينية التي يواجهها الإنسان من خلال تجربة التفكير ومسيرة التكوين تظهر الحاجة الماسة إلى الاستثمار والتنمية عن طريق تحديث أنماط التعلم والمقومات المعرفية التي

تجعل من المعرفة التكوينية نشاطا وممارسة تبنى تدريجيا وتتماهى مع الاستعدادات الذهنية للمتكون، ولذلك فإن فعالية التكوين تظهر من خلال التفكير الخلاق والمنتج، « ... فالفرد الذي يتعلم نادرا ما يوظف كل طاقاته وقدراته أثناء مزاولته لفعل التعلم، لذا فإن بيداغوجيا المعرفة في مجال التكوين تسعى إلى تمكين المتعلمين من الأدوات المعرفية التي تؤهلهم لتطوير قدراتهم العقلية واستعمال كل الطاقات الكامنة فيهم لتحسين الوظائف والعمليات العقلية التي يقومون بها، ثم الرفع من كفاءات الأفراد على تعلم التعلم من جهة وتعلم التفكير من جهة أخرى، ومن ثم فهي تعمل على تسهيل عملية إعمال الفكر لدى المتعلم من خلال تشجيعه على التحكم في نشاطه الذهني من خلال تعليمه كيف يفكر بشكل فعال ومنتج أثناء معالجة المشكلات التي يواجهها أثناء تعلمه لإستراتيجية التنفيذ التي من خلالها يتعرف الفرد على وظائفه العقلية وكيف يمكنه التحكم فيها...»[23].

خاتمة:

إن طبيعة التكوين الناجح تنطلق من تطوير أدوات الممارسة لكل القدرات والمهارات التي توجه عملية البحث والخلق والإبداع في المجتمع، ومن ثم تتساوى الرغبة في التكوين والتعلم مع دافعية الطموح والإنجاز والانفتاح على متطلبات سوق المعرفة، واستشراف رهانات التنمية، وفي هذا الإطار فإن مفهوم التكوين يربط بين الفكر والممارسة، بين الجانب النظري والجانب العملي في عملية التعلم لاسيما أن مرحلة الإعداد والتخطيط والتنظيم والتنفيذ لبرامج التنمية ومشاريع المعرفة قد يساهم في نجاح عملية التكوين التي تمكن هذه النخب والكفاءات من تنمية الفعالية المعرفية وتطوير الكفايات، فكل حلقة من حلقة التطور التي تعزز فلسفة التكوين الناجح في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية تنفتح على توجيه القدرات والمعارف وصقلها وتمرينها،

فالعلاقة التي تربط بين المكون والمتكون تقوم على المعرفة التي يجب أن تتجاوز مرحلة تصور المتعلم ككائن سلبي مهمته الاستقبال والحفظ إلى مرحلة تصوره ككائن مفكر ومنتج من خلال كفاءاته ومهاراته التي تظهر تجلياتها في مجال المعرفة والبحث والبناء وكل مجالات التنمية التي تجعل من لغة الاستشراف لمستقبل ثقافة التكوين حجر الأساس لتجربة المبدعين والفاعلين داخل مجتمع المعرفة التي تبدأ في التشكل من خلال تكييف مناهج وبرامج التعلم على المستوى النظري مع أساليب الممارسة العقلانية لمراحل التخطيط بواسطة الأهداف، ومن ثم فإن الانتقال من التخلف إلى التنوير قد ساهم في تكوين وطبع نموذج الإنسان الذي تطمح فلسفة المجتمع إلى إعداده مستقبلا، هذا النموذج قد يمكن العلوم الإنسانية والاجتماعية من تكوين العقول المنتجة من خلال مستويات التعلم والاهتمام بالمتلقي انطلاقا من توجيه المنحنى التفكيري والإبداعي وتهيئته وإعداده وتكوينه بشكل جيّد على مستوى البنيات المعرفية التي تختزل تمثلات المجتمع الذي تستشرفه تلك الكفاءات التي تم تكوينها وإنتاجها، فتجليات هذا التكوين والإنتاج تشكل بديلا لكل المشاكل التي تعترض عملية التنمية على المستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، ومن هذا المنظور فإن عصر العولمة والتقنية يقتضي حضور لغة التكوين الناجح في مجال المعرفة والبحث قصد الانخراط والاندماج في المجتمع والتواصل والتفاعل مع مؤسساته المعرفية وقيمه الاجتماعية والتربوية والتعليمية.

الهوامش :

1- محمد شرقي، مقاربات بيداغوجية- من تفكير التعلم إلى تعلم التفكير، دراسة سوسيو بيداغوجية، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2010، ص 07.
2- المرجع نفسه، ص 17.
3- المرجع نفسه، ص 23.

4- عبد الخالق مدبولي، الشرعية والعقلانية في التربية، تقديم: حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1999، ص 08.
5- المرجع نفسه، ص 30.
6- سفير ناجي، محاولات في التحليل الاجتماعي، ج1- التنمية والثقافة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجازئر، 1972، ص153.
7- المرجع نفسه، ص 144.
8- سارنوف أ. مدنيك، هواردز يوليو، إليزابت، ف. لوفتس، التعلم، ترجمة: محمد عماد الدين إسماعيل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1973، ص 13.
9- عمر محمد التومي الشيباني، تطور النظريات والأفكار التربوية، الجماهيرية العربية الليبية، ط4، 1987، ص 139.
10- المرجع نفسه، ص 143.
11- عبد الخالق مدبولي، مرجع سابق، ص ص 93- 94.
12- محمد شرقي، مرجع سابق، ص 68.
13- المرجع نفسه، ص 109.
14- المرجع نفسه، ص 96.
15- المرجع نفسه، ص 91.
16- عبد اللطيف المودني، الإصلاح التربوي وأوراش مدرسة المستقبل، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد: 3- 4، المغرب، 2011، ص 33- 34.
17- المقال نفسه، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد: 3- 4، المغرب، 2011، ص 36.
18- مجلة الفكر، المجلد 41، العدد 03، جانفي- مارس، 2013، الكويت، ص 153.
19- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر- بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص 339.
20- سفير ناجي، مرجع سابق، ص 90.
21- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، 2009، ص 13.
22- محمد شرقي، مرجع سابق، ص 126.
المرجع نفسه، ص 84